وللأمُم أيضًا منْ رجَالها عناوين

(عاد الشعر في العالم كما بدأ) وهو عنوان المقال السابق سقط سهوًا في جريدة (الشعب) التي نشرته. والمقال من غير عنوان كتاب غُفل ودينار مسيح وطريق دارس، وفي الأمثال: الكتاب يعرف من عنوانه. والظاهر عنوان الباطن. وفي الشعر:

كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

واختيار العنوان نصف الموضوع، لأن الكاتب لا يسمي موضوعه إلا إذا تولد في ذهنه وتحقق في خياله وتشخص في نفسه. وأنا بالذات أدخل الموضوع من عنوانه، فهو بابه ولبابه. وربما لا يكون في الذهن وقت الكتابة إلا هذه الجرثومة التي قطرت من شق القلم على رأس الصفحة، ثم تتداعى المعاني وتتوالى الخواطر، ويتشقق بعضها عن بعض حتى تصير مقالة أو رسالة:

ولعناوين الكتب في تاريخ الأدب فصل طريف .. كان العلماء والأدباء في القرون الثلاثة الأولى من العصر العباسي يتوخون في عناوين كتبهم الوجازة والبساطة والوضوح، فيقولون مثلا: الموطأ. البخلاء، الأغاني، الكامل.

فلما أقبل القرن الخامس كان العرب قد استبد بهم سرف العيش وترف الحضارة فتأنقوا في الزينة وتفننوا في الزخرف وسرى ذلك إلى الكتاب فبالغوا في توشية الأسلوب بالسجع والجناس، وتمويه المعاني بالزيف والبهرج، ورسموا بألوان البيان والبديع صورًا من النثر والنظم عجيبة، فيها المادة وليس فيها الروح، وفيها الصنعة وليس فيها الفن، ونفضوا من تلك الأصباغ على عناوين الكتب فقالوا: الشعور بالعور. مشتهى العقول في منتهى النقول. نكت الهميان في نكت العميان. تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة. الشماريخ في علم التاريخ. الجواهر المفتخرة من الكنايات المعتبرة. فتح المقال في وصف النعال.

وانتقلت عدوى هذا الداء من الأدب إلى العلم فقالوا: التفاحة في علم المساحة. نخبة الأذكياء في علم الكيمياء. الآيات النباتات في علم النباتات. المصباح الوضاح في صناعة الجراح. الاستكشاف العصري في الدمل المصري.

وجمع بعض المتأخرين من فقهاء الأزهر بين التكلف والسخف في عناوين كتبهم فقالوا: ألف سيخ في عين من حرم أكل الفسيخ. القول المحقق في تحريم البن المحرق. أكل الرز في حل اللغز !.

وكان صديقنا المغفور له محمود زناتي مولعًا بتتبع هذا الضرب من العناوين، يحكيه ويحاكيه على سبيل التفكه. كان يتهكم أو يهجو أو يهدد بعنوان يضعه على ذلك النمط لمشروع كتاب فيكون العنوان نفسه خلاصة رأيه ومنطوق حكمه. فمن عناوينه التي يجوز أن تنشر في صحيفة أن معابثة وقعت بيننا وبين صديقنا طه حسين في يوم من أيامنا بالأزهر، فقال له محمود مهددًا: سنؤلف نحن الاثنين رسالة في ذمك نجعل عنوانها: أرسلاها في طه.

ولم تبرأ عناوين القصص المترجمة من علة السجع والجناس فقد عنون المرحوم عثمان جلال قصة (بول وفرجيني) بهاتين الفقرتين: تمر حنة في قبول وورد جنة. يريد بقبول (بول) وبورد جنة (فرجيني).

ورأى بعض الصحف في العهد الماضي أن من جمال الإخراج الصحفي أن تلتزم السجع في عناوين الأخبار. وأخذت جريدة (مصر) نفسها بهذا الالتزام أخذًا شديدًا، فكانت تبذل من الجهد في تسجيع العناوين، أكثر مما تبذله في تسقط الأخبار نفسها من الأقاليم والدواوين .. يحضرني منها على سبيل المثال قولها: مجلس الوزراء يجتمع في السادسة من المساء. بقايا حكم الكرباج، في مديرية سوهاج. دعاء إلى تناول الفطور، ثم انهال عليه بالساطور. زراع القصب، في منتهى الغضب. يسرقون البقر والأغنام، ولا يخافون عين الرب الذي لا ينام !.

ثم تخفف أسلوب العصر رويدًا رويدا من أثقال الزخرف الكاذب حتى عاد أشبه بمنبعه الأول في صفاء لفظه وخلوص بيانه، فذهبت عن العناوين تلك الغثاثة وأصبحت في الكتب والصحف نوعًا من الكلم الجوامع تجمع بين الإيجاز والتشويق والبساطة.

* * * * *

وللأمم أيضًا من أسماء حكامها عناوين، منها العريض البارز المتألق الذي يشع من نوره على كل شخص في شعبه، وعلى كل شيء في وطنه، فيمحو كل ظلام ويستر كل عيب ويسد كل نقص، فلا يظهر للناس إلا كماله، ولا ينشر في الأرض إلا خيره.

ومنها الغليظ الصفيق المعتم الذي يغشى أمته غشيان السحائب الجون فيحجب فضلها إن كان لها فضل، ويسلب عقلها إن كان لها عقل، ثم يدعها شمسًا وراء ضباب، وذهبًا تحت تراب، ونفسًا خيرة يمثلها في الوجود وجه شيطان.

ومنها الغائر المطموس المشوه الذي يخفق على أرجاء دولته خفوق السراب الخادع يوهم ولا يحقق، ويشير ولا يدل، ويشكك ولا يؤكد، فهو على رأس أمته عمامة على نعش، وشاهد على قبر، ولفظ غريب على معنى مغلق.

أمثل للنوع الأول من هذه العناوين بعبد الناصر ونهرو، وللنوع الثاني بإيدن أيام كان ونوري، وللنوع الثالث بمندريس ورجل آخر تختاره أنت !.

أخطر ببالك الهند، فهل تذكر حين تذكرها ما فيها متن اختلاف العقائد والألسن، وتخلف الحضارة والعلم، وغرابة العادات والتقاليد؟ إنك لا تذكرها إلا مضافة إلى نهرو أو ممثلة فيه. وإذن لا تجد إلا الدولة التي أشرقت في السياسة الدولية إشراق الهدى في الضلال والأمان في الخوف والوئام في الخصومة. تقول فتسمع، وتدعو فتجاب، وترى فيقام لرأيها وزن. فلو أن القدر أبدلها من نهرو عنوانًا آخر من نكرات القوم وأشعاث السياسة لظلت كجارتها باكستان تابعة لا متبوعة ومنكورة لا معروفة. وتلك حال كل أمة تتخذ عناوينها من تيم التي يقول فيه الشاعر:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يُستأمرون وهم شهود

ثم أخطر ببالك بعد ذلك انجلترا أو فرنسا، فهل تذكر حين تذكرها تلك الحضارة التي طبقت الأرض، أو تلك العلوم التي سخرت الطبيعة، أو تلك الآداب التي هذبت الإنسان، أو تلك الفنون التي رفعت النفس، أو الحرية التي أحيت الضمير، أو الأخلاق التي دعمت المجتمع؟.

إنك اليوم لا تذكر شيئًا من كل أولئك لأنه انطوى تحت عناوين سائرة من الحمق والسفه والإجرام والعدوان، كلماتها المظلمة إيدن أو جي موليه أو من شابههما من

أولئك الأوغاد الذين نجمت في رءوسهم قرون الشياطين، وسالت في أفواههم سموم الأفاعي. لن يرد على خاطرك من رجال هاتين الدولتين إلا مستعمر مجرم أو مستغل لص. أما العلماء والأدباء والفنانون والمفكرون والخيرون فقد غشيتهم ظلمات هذه العناوين فلا يظهر منهم عين ولا أثر.

وأكذب ما يكون العنوان إذا وضعه على الكتاب غير مؤلفه كما ترى في العراق، فقد ألف الله أمته بيده وجاء الإنجليز فجعلوا عنوانها نوري السعيد! فهو لا يدل عليها إلا كما يدل الاستعمار على الإصلاح، والتبعية على الاستقلال، والسكسونية على العروبة! فمتى يا بني العم يزول الطغيان ويصح العنوان ويتصل الحبل ويجتمع الشمل ويتحد الطريق؟.